



بين العولمة وتحولات الفكر كيف يصنع الانسان توازنه الداخلي

م. وسام هويدي الشامي^a

^a جامعة اهل البيت (ع)

ARTICLE INFO

Article history:

Available online [16 Oct. 2026]

Keywords:

العولمة
تحولات الفكر
التوازن الداخلي
الهوية
الوعي النقدي
الاعتراب
القيم

المستخلص

يتناول هذا البحث إشكالية التوازن الداخلي للإنسان في سياق العولمة والتحولات العميقة التي يشهدها الفكر المعاصر، بوصفها إحدى أبرز القضايا الوجودية والنفسية التي أفرزها الواقع الكوني الراهن. فلم تعد العولمة مجرد ظاهرة اقتصادية أو تقنية بل تحولت إلى منظومة شاملة أعادت تشكيل أنماط التفكير وبني القيم وصورة الإنسان عن ذاته وعلاقته بالعالم الأمر الذي انعكس بصورة مباشرة على استقراره النفسي وهويته ومرجعياته الوجودية. ينطلق البحث من فرضية مفادها أن التحولات الفكرية المصاحبة للعولمة بما تحمله من تسارع معرفي وهيمنة للنموذج الاستهلاكي وتراجع للبعد القيمي والروحي قد أسهمت في إحداث اختلال ملحوظ في التوازن الداخلي للإنسان المعاصر. ويتجلى هذا الاختلال في مظاهر متعددة من أبرزها القلق الوجودي واضطراب الهوية والشعور بالاغتراب والانقسام الداخلي بين منظومات قيمية متباينة وضغوط خارجية متسارعة تدفع البحث إلى تحليل مفهوم التوازن الداخلي بوصفه حالة من الانسجام بين الأبعاد العقلية والنفسية والوجدانية والروحية للإنسان ضمن إطار قيمي متماسك كما يعمل على إبراز دور الوعي النقدي والهوية المتوازنة في تمكين الفرد من التعامل الواعي مع تحولات العصر دون الوقوع في الرفض المطلق أو الذوبان الثقافي. ويؤكد البحث أن التوازن الداخلي في زمن العولمة لم يعد حالة ثابتة تُكتسب مرة واحدة بل أصبح مشروعاً مستمراً ومتجدياً يتطلب جهداً ذاتياً واعياً ودعماً مؤسسياً وثقافياً يساهم في بناء الإنسان القادر على التفاعل الإيجابي مع المتغيرات مع الحفاظ على بولصته القيمية ومعناه الإنساني.

Abstract

This research deals with the problem of the internal balance of human beings in the context of globalization and the profound transformations witnessed by contemporary thought, as one of the most prominent existential and psychological issues produced by the current cosmic reality. Globalization is no longer just an economic or technological phenomenon, but has turned into a comprehensive system that has reshaped the patterns of thinking, the structure of values, the image of oneself and its relationship with the world, which has directly reflected on its psychological stability, identity, and existential references. This imbalance is manifested in multiple manifestations, most notably existential anxiety, identity disorder, a sense of alienation, and internal division between disparate value systems and accelerating external pressures, and the research seeks to analyze the concept of internal balance as a state of harmony between the mental, psychological, emotional, and spiritual dimensions of human beings within a coherent value framework, as well as to highlight the role of critical awareness and balanced identity in enabling the individual to deal consciously with the transformations of the age without falling into absolute rejection or cultural meltdown. The research confirms that the internal balance in the time of globalization is no longer a fixed state that is acquired once, but has become a continuous and renewed project that requires conscious self-effort and institutional and cultural support that contributes to building the human being capable of positively interacting with the changes while maintaining his value compass and human meaning.

© 2026 Madenat Al-elem University College. Published by JMAUC. This is an open access article.

1. المقدمة

الواقع بات الإنسان يعيش في فضاء مفتوح تتداخل فيه الثقافات وتتزاخم المرجعيات وتتسارع فيه التحولات القيمية الأمر الذي أفضى إلى حالة من عدم الاستقرار الوجودي والقلق المتزايد بشأن الهوية والمعنى والانتماء (Bauman, 2000).

ويشير عدد من المفكرين إلى أن التحولات الفكرية المصاحبة للعولمة قد أسهمت في إضعاف الأطر المرجعية التقليدية التي كانت تمنح الإنسان إحساساً بالثبات والاستمرارية سواء على مستوى القيم الدينية أو الأخلاقية أو الاجتماعية (Taylor, 1989). ففي عالم يتسم بالسهولة والتغير الدائم لم تعد الهويات معطى ثابتاً بل أصبحت مشاريع مفتوحة وقابلة لإعادة الصياغة المستمرة وهو ما يضع الفرد أمام عبء دائم يتمثل في ضرورة إعادة تعريف ذاته في سياق متحول وغير مستقر (Bauman, 2004).

يشهد العالم المعاصر تحولات عميقة وغير مسبقة طالت مختلف المستويات الفكرية والثقافية والاجتماعية والتكنولوجية في سياق تاريخي اتسم بتسارع غير معهود في وتيرة التغير واتساع نطاق التأثيرات العابرة للحدود. وقد شكلت العولمة الإطار الأشمل لهذه التحولات، بوصفها ظاهرة كونية لم تعد تقتصر على المجال الاقتصادي أو التجاري بل تجاوزته لتطال بنية الوعي الإنساني وأنماط التفكير وصيغ العيش ومنظومات القيم والمعنى (Giddens, 1990 ؛ Held et al., 1999).

لقد أفرزت العولمة واقعاً جديداً يتسم بتكثيف العلاقات الاجتماعية على نطاق عالمي بحيث أصبح ما يحدث في بقعة جغرافية معينة يؤثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة في حياة الأفراد في أماكن أخرى من العالم وهو ما أدى إلى إعادة تشكيل التجربة الإنسانية اليومية على المستويات النفسية والثقافية والرمزية (Giddens, 1991). وفي ظل هذا

3. أهمية البحث:

تتبع أهمية هذا البحث من كونه يتناول إحدى أكثر القضايا الوجودية إلحاحاً في الفكر المعاصر وهي قضية التوازن الداخلي للإنسان في زمن العولمة في سياق عالمي يتسم بتسارع غير مسبوق في التحولات الفكرية والثقافية والتكنولوجية. فقد أدت العولمة بوصفها منظومة كونية شاملة إلى إعادة تشكيل أنماط التفكير وصيغ العيش وإلى زعزعة الكثير من المرجعيات القيمية التي كانت تمنح الإنسان إحساساً بالثبات والمعنى الأمر الذي انعكس بصورة مباشرة على بنية الوعي الإنساني واستقراره النفسي (Held et al., 1999؛ Giddens, 1991).

وتكمن الأهمية الفكرية لهذا البحث في سعيه إلى فهم الأبعاد النفسية والرمزية العميقة للعولمة وعدم الاكتفاء بقراءة آثارها الاقتصادية أو التقنية الظاهرة. فالعولمة بما تفرضه من إيقاع سريع للحياة ومن ضغط دائم لإعادة التكيف مع متغيرات متلاحقة قد أسهمت في إنتاج أنماط جديدة من القلق الوجودي والشعور بعدم الأمان وفقدان السيطرة على مسار الحياة الشخصية وهو ما أشار إليه هارتموت روزا عند حديثه عن ((التسارع الاجتماعي)) بوصفه سمة مركزية للحدث المتأخرة وما يرافقه من إنهك نفسي واغتراب داخلي (Rosa, 2013).

كما يؤكد (بيونغ تشول هان) أنَّ الإنسان المعاصر بات يعيش تحت ضغط الاستغلال الذاتي المستمر ما جعله أكثر عرضة للاحتراق النفسي وفقدان التوازن الداخلي (Han, 2015).

وتبرز ضرورة هذا البحث في إبراز التوازن الداخلي بوصفه شرطاً وجودياً أساسياً لاستمرار الإنسان وقدرته على العيش بوعي وإثران في عالم متحول لا بوصفه ترفاً فكرياً أو حالة نفسية عابرة. فاختلال التوازن الداخلي لا ينعكس فقط في أعراض نفسية مؤقتة بل يؤدي إلى تفكك الشخصية، واضطراب الهوية، وتآكل الإحساس بالمعنى وهو ما أكدته مقاربات علم النفس الوجودي التي ترى أنَّ الإنسان لا يستطيع تحمّل ضغوط الحياة الحديثة دون أفق معنوي وقيمي يمنحه التماسك الداخلي والقدرة على الصمود (Frankl, 1959). وفي هذا السياق يصبح البحث في التوازن الداخلي ضرورة علمية وإنسانية لا سيما في ظل تراجع الأطر التقليدية التي كانت تؤمن للفرد مرجعية ثابتة للمعنى والانتفاء (Berger, 1967).

كما تكتسب أهمية هذا البحث من كونه يسهم في تفكيك مظاهر الاغتراب التي يعاني منها الإنسان المعاصر سواء على المستوى النفسي أو الثقافي أو الاجتماعي في ظل هيمنة النموذج الاستهلاكي والعقل الأداتي الذي اختزل الإنسان في أبعاده الوظيفية والإنتاجية. فقد حذر إريك فروم مبكراً من تحول الإنسان الحديث من كائن يسعى إلى (أن يكون) إلى كائن منشغل بما (يملك) وهو تحول يفضي إلى فراغ داخلي عميق مهما بدا التقدم المادي ظاهراً (Fromm, 1976). ويعزز هذا المنحى ما أشار إليه ((بورغن هابرماس)) حول هيمنة العقل الأداتي ومنطق السوق على مجالات الحياة بما يؤدي إلى تهيمش القيم التواصلية والأخلاقية التي تشكل أساس التوازن الإنساني (Habermas, 2001).

وتتجلى أهمية البحث أيضاً في بعده التطبيقي والفكري معاً إذ لا يقتصر على التشخيص النظري للآزمة بل يسعى إلى تقديم إطار تحليلي يساعد الفرد كما المؤسسات التربوية والثقافية على فهم آليات تشكل الاضطراب القيمي والنفسي في زمن العولمة وسبل مواجهته بوعي نقدي متوازن. فالربط بين البعد النفسي والبعد القيمي والروحي في بناء الإنسان المتوازن يُعدّ مدخلاً أساسياً للحد من آثار الذوبان الثقافي أو الانغلاق الثقافي وكلاهما يشكل تهديداً مباشراً للتوازن الداخلي (Taylor, 1989؛ Bauman, 2000).

ومن هذا المنطلق تبرز ضرورة البحث في ظل الحاجة المتزايدة إلى إعادة التفكير في مفهوم الإنسان ذاته داخل الفكر المعاصر وإلى استعادة البعد الإنساني العميق الذي يوازن بين متطلبات العصر المادي والتقني وبين حاجات الروح والمعنى والانتفاء. فيقدر ما يسهم البحث في تعميق الوعي بهذه الإشكالية يكون قادراً على فتح أفق فكري يساعد الإنسان على تحويل تحديات العولمة من مصدر للاضطراب والاغتراب إلى فرصة لإعادة بناء الذات على أسس أكثر اتزاناً وإنسانية.

4. أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحليل ظاهرة العولمة وتحولات الفكر المعاصر والكشف عن انعكاساتها العميقة على الإنسان من حيث الوعي والهوية والاستقرار النفسي. كما يهدف إلى توضيح مفهوم التوازن الداخلي وبيان ركائزه الأساسية في سياق التحولات المعاصرة مع التركيز على دور الهوية الواعية والوعي النقدي في تحقيق الاستقرار النفسي والوجداني. ويهدف البحث كذلك إلى إبراز أهمية البعد القيمي والروحي في مواجهة النزعة الاستهلاكية والاغتراب الوجودي واقتراح مداخل فكرية تسهم في بناء إنسان متوازن قادر على التفاعل الإيجابي مع معطيات العصر دون فقدان بوصلته القيمية.

5. أسئلة البحث:

ينطلق البحث من مجموعة من التساؤلات المحورية التي تسعى إلى تفكيك العلاقة بين العولمة والتوازن الداخلي من أبرزها:

كيف أسهمت العولمة في إعادة تشكيل الوعي الإنساني والفكر المعاصر؟

وقد أدّى هذا الوضع إلى بروز أنماط جديدة من الاغتراب النفسي والاجتماعي حيث يشعر الإنسان بانفصال متزايد عن ذاته وعن محيطه القيمي وعن المعنى العميق لوجوده في ظل هيمنة النموذج الاستهلاكي وثقافة السوق التي تختزل الإنسان في أبعاده المادية والوظيفية (Fromm, 1976؛ Ritzer, 2011). وفي هذا السياق تحولت السرعة والإنجاز والمنافسة والاستهلاك إلى معايير أساسية لتقييم الذات ما أسهم في تعميق القلق الداخلي وتآكل الاستقرار النفسي (Han, 2015).

كما لعبت الثورة الرقمية ووسائل الاتصال الحديثة دوراً محورياً في إعادة تشكيل الوعي الإنساني من خلال فرض إيقاع متسارع للحياة وتكريس ثقافة الصورة والمقارنة الدائمة وإضعاف التجربة التأملية العميقة للذات (Castells, 1996؛ Turkle, 2011). وقد أدّى هذا التحول إلى تضخيم الشعور بالنقص والضغط النفسي نتيجة الخضوع المستمر لمعايير خارجية تُعاد إنتاجها إعلامياً وثقافياً على نطاق عالمي (Rosa, 2013).

وفي خضم هذه التحولات تبرز إشكالية التوازن الداخلي للإنسان بوصفها إحدى القضايا المركزية في الفكر المعاصر. فالتوازن الداخلي لا يُختزل في مجرد الاستقرار النفسي العابر بل يُعبر عن حالة من الانسجام العميق بين مكونات الإنسان العقلية والنفسية والوجدانية والروحية ضمن إطار قيمي يمنحه المعنى والاتجاه (Frankl, 1959).

غير أنَّ تحقيق هذا التوازن بات أكثر تعقيداً في زمن العولمة حيث تتكثف الضغوط وتتعدد المرجعيات وتراجع الأطر الجامعة للمعنى (Berger, 1967).

ومن هنا تكتسب مسألة البحث في كيفية صناعة الإنسان لتوازنه الداخلي في ظل العولمة وتحولات الفكر المعاصر أهمية خاصة، ليس فقط على المستوى الفردي بل أيضاً على المستوى الثقافي والاجتماعي والحضاري. فالتعامل مع العولمة بوصفها قدرًا حتميًا دون وعي نقدي قد يقود إلى الذوبان وفقدان الذات في حين أنَّ الرفض المطلق لها يفضي إلى العزلة والعجز عن التفاعل والتأثير (Habermas, 2001). وعليه تبرز الحاجة إلى مقاربة فكرية متوازنة تسعى إلى فهم العولمة وتحليل آثارها وبناء وعي إنساني قادر على التفاعل الإيجابي مع متغيرات العصر مع الحفاظ على التماسك الداخلي والمرجعية القيمية.

2. مشكلة البحث

تتمثل مشكلة البحث في أنَّ التحولات الفكرية العميقة المصاحبة لظاهرة العولمة قد أسهمت في إحداث حالة مركبة من الازدواجية والصراع الداخلي لدى الإنسان المعاصر، نتيجة التداخل غير المسبوق بين منظومات قيمية متعددة وأنماط عيش وافدة وضغوط إعلامية وثقافية واقتصادية متسارعة. فقد أصبح الفرد يعيش في فضاء عالمي مفتوح تُفرض عليه فيه نماذج وسلوكية ومعيارية جاهزة كثيراً ما تتعارض مع موروته الثقافي والروحي ومع بنيتة القيمية الأصلية (Giddens, 1991؛ Held et al., 1999).

وقد أدّى هذا الوضع إلى إضعاف المرجعيات التقليدية التي كانت تمنح الإنسان إحساساً بالثبات والاستقرار الأمر الذي انعكس في تصاعد مظاهر القلق الوجودي واضطراب الهوية والشعور بالاغتراب النفسي والاجتماعي. وفي هذا السياق يصف زيجمونت باومان الحالة المعاصرة بمفهوم (الحدث السائلة) حيث تفقد القيم صلابتها وتغدو الهويات هشة وقابلة للتبدل المستمر ويعيش الإنسان في حالة دائمة من عدم اليقين والاستقرار (Bauman, 2000؛ Bauman, 2004).

وتتفاقم هذه الإشكالية في ظل هيمنة النموذج الاستهلاكي وثقافة السوق التي تختزل الإنسان في أبعاده المادية والوظيفية وتخضعه لمعايير النجاح السريع والإشباع الفوري على حساب العمق الوجودي والمعنى الإنساني (Fromm, 1976؛ Ritzer, 2010). وقد أسهم هذا التحول في تعميق الفجوة بين الإنسان وذاته وبينه وبين محيطه القيمي ما ولد شعوراً متزايداً بالفراغ الداخلي والاغتراب عن المعنى (Frankl, 1959).

كما أدت الثورة الرقمية ووسائل الاتصال الحديثة إلى إعادة تشكيل الوعي الإنساني بصورة مكثفة عبر تسريع إيقاع الحياة وتعزيز ثقافة المقارنة الدائمة وتكريس الصورة بوصفها معياراً للتقدير الذات وهو ما زاد من حدة الضغط النفسي وأضعف الاستقلالية الداخلية للفرد (Castells, 1996؛ Turkle, 2011؛ Rosa, 2013). وفي ظل هذا الواقع بات الإنسان معرضاً باستمرار لإعادة تشكيل هويته وفق معايير خارجية تُنتجها المنظومات الإعلامية المعولمة.

ويُضاف إلى ذلك أنَّ تراجع البعد الروحي والأخلاقي في الخطابات السائدة مقابل تصاعد العقل الأداتي والنفعية قد أسهم في إضعاف القدرة على تحقيق التوازن بين متطلبات المادة واحتياجات الروح وهو ما يشكل أحد أبرز أسباب الاختلال النفسي والاضطراب الوجودي في العصر الحديث (Taylor, 1989؛ Berger, 1967). وقد حذر بورغن هابرماس من مخاطر اختزال العقل في وظيفته التقنية لما لذلك من آثار سلبية على المجال القيمي والتواصل للإنسان (Habermas, 2001).

وعليه تبلور الإشكالية المركزية لهذا البحث في التساؤل الآتي: كيف يتمكّن الإنسان المعاصر من صناعة توازنه الداخلي في عالم معولم يفرض تحولات متسارعة على الفكر والقيم والهوية دون الوقوع في الرضخ المطلق أو الذوبان الثقافي؟

وينبثق عن هذا التساؤل الرئيس إدراك أنَّ التوازن الداخلي لم يعد معطى تلقائياً بل أصبح مسألة إشكالية تتطلب وعياً نقدياً وإعادة بناء للهوية واستعادة للبعد القيمي والروحي ضمن سياق قادر على التفاعل الواعي مع متغيرات العصر.

وما المقصود بالتوازن الداخلي في سياق التحولات المتسارعة التي يشهدها العالم اليوم؟

وما طبيعة العلاقة بين الهوية والاستقرار النفسي للإنسان المعاصر؟

وكيف يمكن للوعي النقدي أن يشكل أداة فاعلة في مواجهة ضغوط العولمة؟

وما الدور الذي تؤديه القيم الروحية والأخلاقية في استعادة المعنى وتحقيق التماسك الداخلي؟

6. الإطار المفاهيمي والمرجعي للبحث:

يقوم هذا البحث على إطار مفاهيمي مركب يتداخل فيه البعد السوسيولوجي والفلسفي والنفسي انطلاقاً من الإقرار بأن ظاهرة العولمة لا يمكن مقاربتها من زاوية أحادية نظراً لتشابك آثارها وتعدد مستويات تأثيرها في الإنسان المعاصر.

فالعولمة كما تتبدى في الفكر الاجتماعي المعاصر ليست مجرد سيرة اقتصادية أو تقنية بل تحول بنيوي شامل أعاد تشكيل أنماط التنظيم الاجتماعي وصور الهوية وبنية الوعي الفردي والجماعي على حد سواء (Held et al., 1999؛ Giddens, 1990).

في هذا السياق يستند البحث إلى نظريات العولمة والتحولات الاجتماعية التي تناولت تفكك الحدود التقليدية للمجتمع وتكثيف العلاقات العابرة للزمان والمكان وما نتج عن ذلك من إعادة صياغة للتجربة الإنسانية اليومية. ويُعد إسهام أنطوني غيندن محورياً في هذا المجال إذ يربط بين العولمة وتحولات الذات الحديثة معتبراً أن الفرد في ظلّ الحداثة المتأخرة بات مطالباً بإعادة بناء هويته بصورة انعكاسية مستمرة في عالم يتسم بعدم الاستقرار وتسارع التغير (Giddens, 1991). ويؤكد ((غيندن)) أن هذا الوضع يفرض على الإنسان أعباء نفسية ومعرفية جديدة تتجلى في الفلق الوجودي وهشاشة الإحساس بالأمان وصعوبة تحقيق التوازن الداخلي.

ويتقاطع هذا المنظور مع تحليل ((مانويل كاستلز)) الذي يرى أن الثورة الرقمية وبرزو (مجتمع الشبكة) قد أسهما في إعادة تشكيل أنماط التفكير والتفاعل الاجتماعي وفرض إيقاع متسارع للحياة يتجاوز قدرة الإنسان على الاستيعاب والتكيف النفسي المتوازن (Castells, 1996). فالتدفق المستمر للمعلومات، وسيادة الفضاء الافتراضي وتداخل الأدوار والهويات جميعها عوامل تسهم في تشويش البوصلة الداخلية للفرد وتضعف قدرته على بناء علاقة متماسكة مع ذاته ومع العالم.

كما يستند البحث إلى النقد الفلسفي والاجتماعي للحداثة والحداثة المتأخرة لا سيما في أعمال زيجمونت باومان الذي قدم توصيفاً عميقاً لما أسماه ((الحداثة السائلة)) حيث تفقد القيم والمعايير ثباتها وتغدو العلاقات والهويات والسير الحياتية هشة وقابلة للتبدل السريع (Bauman, 2000). ويشير باومان إلى أن هذه السبيلة الوجودية تضع الإنسان في حالة دائمة من عدم اليقين وتحول التوازن الداخلي إلى حالة مهددة باستمرار في ظل غياب الأطر المرجعية المستقرة.

وفي الاتجاه ذاته يقدم تشارلز تالور تحليلاً فلسفياً لأزمة الهوية في العالم الحديث مبيّناً أن تراجع المرجعيات الأخلاقية المشتركة وصعود النزعة الفردانية المنفصلة عن الأطر القيمية، قد أدّى إلى فراغ معنوي عميق انعكس سلباً على الإحساس بالذات والاستقرار النفسي (Taylor, 1989). ويؤكد تالور أن الإنسان لا يستطيع بناء هوية متوازنة دون انغماس في أفق قيمية يمنح أفعاله ومعاناته معنى يتجاوز للحظة الراهنة.

ويستفيد البحث كذلك من إسهامات علم النفس الوجودي ولا سيما أعمال فيكتور فرانكل، الذي شدد على أن البحث عن المعنى يُعدّ الدافع الأساسي في حياة الإنسان وأن فقدان هذا المعنى هو أحد أبرز أسباب الاضطرابات النفسية في العصر الحديث (Frankl, 1959). ويرى فرانكل أن التوازن الداخلي لا يتحقق عبر الإشباع المادي أو النجاح الخارجي، بل من خلال امتلاك رؤية ذاتية للحياة وقيم عليا تمكن الإنسان من تحمّل الألم والضغوط وتحويلها إلى خبرة ذات دلالة.

وإلى جانب ذلك يعتمد البحث على النقد الثقافي للنزعة الاستهلاكية والعقل الأداتي كما ظهر في أعمال إريك فروم ويورغن هابرماس. فقد حذر فروم من تحول الإنسان الحديث من ((كائن يكون)) إلى ((كائن يملك)) معتبراً أن اختزال القيمة الإنسانية في الامتلاك والاستهلاك يؤدي إلى اغتراب الإنسان عن ذاته وعن إنسانيته العميقة (Fromm, 1976).

أما (هابرماس) فقد نبّه إلى هيمنة العقل الأداتي والتقني على مجالات الحياة وما يترتب على ذلك من تهميش للبعد القيمي والتواصل الأمثل الذي يهدّد التوازن النفسي والاجتماعي للفرد والمجتمع معاً (Habermas, 2001).

وانطلاقاً من هذا الإطار المفاهيمي المتعدد يسعى البحث إلى مقارنة التوازن الداخلي بوصفه ظاهرة مركبة تتشكل عند تقاطع العوامل الاجتماعية والفكرية والنفسية والروحية في ظلّ عالم معولم يتسم بالتسارع والسبولة واللايقين. وبذلك، لا ينظر البحث إلى التوازن الداخلي كحالة نفسية معزولة، بل كمحصلة لعلاقة الإنسان بذاته وبقيمه، وبالعالم الذي يعيش فيه ضمن سياق تاريخي وثقافي محدد.

7. مناقشة وتحليل:

أولاً: العولمة وتحولات صورة الإنسان

أسهمت العولمة بوصفها عملية تاريخية مركبة في إحداث تحول جذري في صورة الإنسان عن ذاته وعن موقعه في العالم حيث لم يعد يُنظر إليه باعتباره كائناً ذا عمق روحي وأخلاقي متجذّر في منظومة قيمية مستقرة بل بات يُختزل بصورة متزايدة في أدواره الوظيفية والاقتصادية والاستهلاكية. وقد رافق هذا التحول انتقال مركز النظم من الإنسان بوصفه غاية في ذاته إلى الإنسان بوصفه وسيلة ضمن منظومات السوق والإنتاج والاستهلاك وهو ما انعكس بوضوح على بنية الوعي الفردي والجماعي في المجتمعات المعاصرة (Bauman, 2000؛ Giddens, 1990).

وفي هذا السياق حذر (إريك فروم) مبكراً من مخاطر هذا التحول حين ميّز بين نمطي الوجود والامتلاك، مبيّناً أن سيادة نمط (الامتلاك) في المجتمعات الحديثة تؤدي إلى إفقار الحياة الداخلية للإنسان وإلى اختزال قيمته في ما يملك لا في ما يكون الأمر الذي يفضي إلى مشاعر الفراغ والقلق وفقدان المعنى (Fromm, 1976). وقد تعزّز هذا الاتجاه مع تصاعد النزعة الاستهلاكية العالمية حيث أصبحت الهوية تُبنى على أساس الاستهلاك والصورة والمكانة الاجتماعية لا على أساس القيم أو العمق الإنساني (Ritzer, 2010).

كما لعبت التحولات التكنولوجية والرقمية دوراً حاسماً في إعادة تشكيل صورة الإنسان إذ فرضت منطق السرعة والتواصل الفوري والتعرض المستمر للتقييم والمقارنة ما أسهم في إضعاف العلاقة التأملية للإنسان بذاته وتعزيز أنماط سطحية من الوعي والانتماء (Castells, 1996؛ Rosa, 2013). وفي ظلّ هذا الواقع بات الإنسان المعاصر يعيش حالة من الانقسام الداخلي بين متطلبات عالم سريع الإيقاع وحاجته العميقة إلى الاستقرار والمعنى وهو ما يشكل أحد أبرز مصادر اختلال التوازن الداخلي.

ثانياً: التوازن الداخلي بوصفه ضرورة وجودية

يُعدّ التوازن الداخلي مفهوماً مركزياً في فهم الحالة الإنسانية المعاصرة إذ يشير إلى حالة من الانسجام الديناميكي بين الأبعاد العقلية والنفسية والوجدانية والروحية للإنسان ضمن إطار قيمي يمنحه الاتجاه والمعنى. ولا يُنظر إلى هذا التوازن بوصفه حالة مثالية أو سكنوية بل بوصفه عملية مستمرة من التكيف الواعي مع الذات ومع العالم في مواجهة الضغوط والتحولات المتسارعة (Taylor, 1989؛ Giddens, 1991).

ويؤكد علم النفس الوجودي ولا سيما في أعمال فيكتور فرانكل، أن فقدان المعنى يمثل أحد أخطر مظاهر الاضطراب النفسي في العصر الحديث، وأن الإنسان مهما بلغت قدرته على التكيف التقني أو المادي لا يستطيع تحمّل المعاناة أو الضغوط المستمرة دون أفق معنوي يضفي على وجوده قيمة وغاية (Frankl, 1959). ومن هذا المنطلق، يصبح التوازن الداخلي شرطاً وجودياً أساسياً لا مجرد نفسية ثانوية، إذ يمكن الإنسان من الحفاظ على تماسكه الداخلي في عالم يتسم بعدم اليقين والتغير الدائم.

وقد أسهمت الحداثة المتأخرة كما يصفها باومان، في تقويض الأطر التقليدية التي كانت توفر للفرد إحساساً بالثبات والاستمرارية ما جعل التوازن الداخلي أكثر هشاشة وأكثر عرضة للاختلال تحت وطأة الضغوط الاقتصادية والثقافية والإعلامية (Bauman, 2000؛ Bauman, 2004). وفي ظلّ هذا الوضع لم يعد التوازن الداخلي معطى جاهزاً بل أصبح مشروعاً شخصياً وجماعياً يتطلب وعياً نقدياً وجهداً مستمراً ودعماً ثقافياً ومؤسسياً.

هو عرض مرئي للمعلومات كشيكات بيانية تربط المفاهيم باستخدام التطبيقات التقنية المتطورة (Buzan, 2006, p. 78-79)، وإجرائياً هي وسيلة تعليمية رقمية لإنشاء مخططات مرئية توضح المفاهيم التاريخية للطلاب لتعزيز فهمهم.

ثالثاً: الهوية والوعي النقدي

تمثل الهوية إحدى الركائز الأساسية في بناء التوازن الداخلي إذ لا يمكن للإنسان أن يحقق انسجاماً نفسياً حقيقياً في ظلّ غياب مرجعية هوياتية واضحة تمنحه الإحساس بالانتماء والاستمرارية. غير أن الهوية في سياق العولمة لم تعد كياناً ثابتاً أو معطى مغلقاً، بل أصبحت مجالاً للتفاوض المستمر بين الذات والآخر وبين الخصوصية والانفتاح (Taylor, 1989؛ Hall, 1996).

ويشير (تشارلز تالور) إلى أن أزمة الهوية المعاصرة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتآكل الأطر المرجعية الأخلاقية المشتركة ما أدى إلى حالة من التشظي القيمي وفقدان المعايير الجامعة للمعنى (Taylor, 1989). وفي هذا السياق لا يكمن الحل في الانغلاق الهوياتي أو رفض الآخر كما لا يكمن في الذوبان الكامل في الثقافات المهيمنة بل في بناء هوية واعية بجذورها مفتوحة على الحوار وقادرة على التفاعل النقدي مع العالم.

وهنا يبرز الوعي النقدي بوصفه أداة مركزية في تمكين الإنسان من الحفاظ على توازنه الداخلي، إذ يسمح له بتمييز ما يسهم فعلياً في نموه النفسي والروحي عما يؤدي إلى استنزافه واغترابه. فالوعي النقدي، كما يؤكد (هابرماس) يشكل شرطاً لتحرير الإنسان من هيمنة العقل الأداتي والخطابات المهيمنة ويعيد إليه قدرته على الفعل الواعي والمسؤول (Habermas, 2001). ومن دون هذا الوعي يتحول الإنسان إلى مجرد متلقٍ سلبي لمنتجات العولمة الثقافية والإعلامية ما يضاعف من حدة الاضطراب الداخلي وفقدان المعنى.

8. الخاتمة:

تبين هذه الدراسة أن الإنسان في زمن العولمة يقف أمام تحدٍّ وجودي عميق يتمثل في كيفية الحفاظ على توازنه الداخلي وسط عالم سريع التحول متعدد المرجعيات، ومشحون

مختلف مؤسسات التنشئة الاجتماعية، لأن هذه القيم تمثل الأساس الذي يستند إليه الإنسان في تحقيق التوازن بين متطلبات الحياة المادية وحاجاته النفسية والوجدانية.

وتؤكد الدراسة أهمية تطوير البرامج الثقافية والإعلامية التي تعزز الهوية الوطنية والإنسانية وتدعم ثقافة الحوار والانفتاح الواعي، بما يسهم في الحد من مظاهر الاغتراب الثقافي والانقسام القيمي التي قد تنتج عن التأثير غير الواعي بمظاهر العولمة المختلفة.

كما توصي بضرورة توجيه وسائل الإعلام ومنصات التواصل الاجتماعي نحو نشر محتوى يسهم في بناء شخصية متوازنة وقادرة على التفكير النقدي، والابتعاد عن المحتويات التي تعزز النزعة الاستهلاكية أو تركز المقارنات الاجتماعية السلبية التي تؤثر في الصحة النفسية للأفراد.

وتدعو الدراسة إلى زيادة الاهتمام ببرامج الصحة النفسية والإرشاد النفسي داخل المؤسسات التعليمية والاجتماعية، بهدف مساعدة الأفراد على مواجهة الضغوط الناتجة عن تسارع التغيرات الفكرية والتكنولوجية واستعادة الشعور بالاستقرار والطمأنينة النفسية.

وأخيراً، توصي الدراسة بضرورة تحقيق توازن واع بين الانفتاح على منجزات الحضارة المعاصرة والاستفادة من التطور العلمي والتقني من جهة، والمحافظة على الخصوصية الثقافية والقيمية من جهة أخرى، بما يضمن بناء إنسان قادر على التفاعل الإيجابي مع العالم مع الاحتفاظ بهويته وتوازنه الداخلي ومعناه الإنساني.

11. المصادر:

باومان، زيغمونت (2000). (Zygmunt Bauman). الحداثة السائلة (Liquid Modernity). كامبريدج: دار بوليتي للنشر.

باومان، زيغمونت (2004). (Zygmunt Bauman). الهوية: حوارات مع بينيديتو فيتششي (Identity: Conversations with Benedetto Vecchi). كامبريدج: دار بوليتي للنشر.

برغر، بيتر ل. (1967). (Peter L. Berger). المظلة المقدسة: عناصر نظرية اجتماعية في الدين (The Sacred Canopy: Elements of a Sociological Theory of Religion). نيويورك: دار دوليبداي.

كاستلز، مانويل (1996). (Manuel Castells). صعود مجتمع الشبكات (The Rise of the Network Society). أكسفورد: بلاكويل.

فرانكل، فيكتور إي. (1959). (Viktor E. Frankl). بحث الإنسان عن المعنى (Man's Search for Meaning). بوسطن: دار بيكون.

فروم، إريك (1976). (Erich Fromm). أن نملك أم أن نكون؟ (To Have or To Be). نيويورك: هاربر ورو.

غيدنز، أنطوني (1990). (Anthony Giddens). عواقب الحداثة (The Consequences of Modernity). كامبريدج: دار بوليتي للنشر.

غيدنز، أنطوني (1991). (Anthony Giddens). الحداثة والهوية الذاتية: الذات والمجتمع في عصر الحداثة المتأخرة (Modernity and Self-Identity: Self and Society in the Late Modern Age). كامبريدج: دار بوليتي للنشر.

هابرماس، يورغن (2001). (Jürgen Habermas). النسق ما بعد القومي: مقالات سياسية (The Postnational Constellation: Political Essays). كامبريدج، ماساتشوستس: معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT Press).

هان، بيونغ-تشول (2015). (Byung-Chul Han). مجتمع الإرهاق (The Burnout Society). ستانفورد، كاليفورنيا: مطبعة جامعة ستانفورد.

هيلد، ديفيد؛ ماكغرو، أنطوني؛ غولبلات، ديفيد؛ وبيراتون، جوناثان. (1999). التحولات العالمية: السياسة والاقتصاد والثقافة (Global Transformations: Politics, Economics and Culture). ستانفورد، كاليفورنيا: مطبعة جامعة ستانفورد.

ريتزر، جورج (2010). (George Ritzer). مكدونالدايزم المجتمع (The McDonaldization of Society). (الطبعة السادسة). ثاوزند أوكس، كاليفورنيا: دار سيج.

روزا، هارتموت (2013). (Hartmut Rosa). التسارع الاجتماعي: نظرية جديدة للحداثة (Social Acceleration: A New Theory of Modernity). نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا.

تايلور، تشارلز (1989). (Charles Taylor). مصادر الذات: تشكل الهوية الحديثة (Sources of the Self: The Making of the Modern Identity). كامبريدج، ماساتشوستس: مطبعة جامعة هارفارد.

توركل، شيري (2011). (Sherry Turkle). معاً ولكن وحدنا: لماذا نتوقع أكثر من التكنولوجيا وأقل من بعضها البعض (Alone Together: Why We Expect More from Technology and Less from Each Other). بايزيك بوكس.

بالضغوط النفسية والثقافية والقيمية. فقد أفرزت التحولات الفكرية المصاحبة للعولمة واقعاً جديداً تتراجع فيه الأطر التقليدية للمعنى وتتسارع فيه وتيرة الحياة، وتتصاعد فيه النزعة الاستهلاكية ما جعل التوازن الداخلي مسألة مركزية لا غنى عنها لفهم أزمنة الإنسان المعاصر.

ويؤكد البحث أن التعامل مع هذا الواقع لا يمكن أن يقوم على الرفض المطلق للعولمة لما يحملها ذلك من انزعاج وتوقع ولا على القبول الأعمى والانصهار الكامل في النموذج المعولم لما يؤدي إليه من فقدان للهوية والاعتراب. بل يبرز مسار ثالث أكثر اتزاناً، يقوم على الفهم العميق للتحولات الجارية، والمساءلة النقدية لما تفرضه من قيم وأنماط عيش والاختيار الواعي لما ينسجم مع المنظومة القيمية والروحية للإنسان (Giddens, 1990; Habermas, 2001).

كما تخلص الدراسة إلى أن التوازن الداخلي لم يعد معطى جاهزاً أو حالة نفسية تُكتسب مرة واحدة، بل أصبح مشروعاً وجودياً مستمراً يتطلب وعياً ذاتياً متجدداً، وقدرة على إعادة بناء العلاقة بين الذات والعالم في ضوء المتغيرات المتسارعة. وفي هذا السياق تكتسب الهوية الواعية، والوعي النقدي والقيم الروحية والأخلاقية أهمية محورية في تمكين الإنسان من استعادة المعنى، وتعزيز الاستقرار النفسي، وبناء إنسان قادر على التفاعل الإيجابي مع العصر دون التفريط بإنسانيته.

وانطلاقاً من ذلك، يدعو البحث إلى ضرورة تفعيل دور المؤسسات التربوية والثقافية والفكرية في بناء وعي إنساني متوازن قادر على مواجهة تحديات العولمة بثقة واتزان وتحويل ضغوطها من مصادر للاضطراب والاعتراب إلى فرص للنمو والارتقاء الفكري والروحي بما يعيد للإنسان موقعه بوصفه غاية في ذاته لا مجرد أداة في منظومة السوق والاستهلاك.

9. النتائج:

يلخص هذا البحث في ضوء التحليل الفكري والنفسى للتحولات التي أفرزتها العولمة إلى أن اختلال التوازن الداخلي لدى الإنسان المعاصر لا يمكن فهمه بوصفه ظاهرة فردية معزولة بل هو نتاج تراكمي لتحولات بنيوية عميقة أصابت الفكر والقيم وأنماط العيش في المجتمعات الحديثة. فقد أدت العولمة بما صاحبها من تسارع معرفي وهيمنة للمنطق الاقتصادي والاستهلاكي إلى إعادة تشكيل صورة الإنسان عن ذاته وتحويله تدريجياً من كائن يسعى إلى المعنى والاستقرار الوجودي إلى ذات قلقة تخضع لضغوط الأداء والإنجاز والمقارنة المستمرة (Bauman, 2000; Rosa, 2013).

وتُظهر نتائج البحث أن النزعة الاستهلاكية لم تؤثر فقط في السلوكيات الاقتصادية بل امتدت تأثيرها إلى البنية النفسية والوجدانية للإنسان حيث أصبح تحقيق الذات مرتبطاً بما يملكه الفرد أو بما يعرضه من صور نجاح خارجي لا بما يحققه من انسجام داخلي أو توازن قيمي. وهو ما أدى إلى تعميق الشعور بالفراغ الداخلي وتنامي حالات القلق الوجودي واضطراب الهوية، خاصة في ظل تراجع المرجعيات الأخلاقية المشتركة التي كانت تمنح الأفراد شعوراً بالثبات والمعنى (Taylor, 1989; Fromm, 1976).

كما يتبين من خلال التحليل أن التوازن الداخلي في عصر العولمة لم يعد حالة نفسية مستقرة أو منجزة نهائياً، بل أصبح مساراً ديناميكياً متجدداً يتأثر بتغير السياقات الثقافية والاجتماعية والتكنولوجية. فالإنسان المعاصر يعيش في بيئة تتسم بعدم اليقين والتغير المستمر ما يفرض عليه جهداً دائماً لإعادة تنظيم علاقته بذاته وبالعلم من حوله على نحو يحفظ انسجامه الداخلي دون الانفصال عن واقعه (Giddens, 1991; Han, 2015).

وتؤكد نتائج البحث أيضاً أن الهوية الواعية والمنفتحة تمثل أحد الشروط الجوهرية لتحقيق الاستقرار النفسي في زمن العولمة. فالهويات المنغلقة تُفضي إلى العزلة والقطعية في حين أن الهويات الذاتية في الآخر تؤدي إلى فقدان الذات والاعتراب. ومن ثم فإن الهوية المتوازنة القائمة على وعي بالجذور والانفتاح النقدي على العالم تتيح للإنسان التفاعل الإيجابي مع التعددية الثقافية دون التفريط بثوابته القيمية (Taylor, 1989; Habermas, 2001).

ويكشف البحث كذلك عن الدور المحوري للقيم الروحية والأخلاقية في إعادة بناء التوازن الداخلي إذ يتبين أن التقدم العلمي والتقني على الرغم من أهميته لا يكفي وحده لضمان الاستقرار النفسي أو تحقيق السعادة الإنسانية ما لم يُدعم بإطار معنوي يمنح الوجود معنى ويضبط العلاقة بين متطلبات المادة واحتياجات الروح. ويؤكد علم النفس الوجودي أن غياب المعنى يُعد من أخطر أسباب الاضطراب النفسي في العصر الحديث وأن الإنسان لا يستطيع الصمود أمام ضغوط الحياة المعاصرة دون أفق قيمي يمنحه الإحساس بالغاية والاتجاه (Frankl, 1959).

وأخيراً تُبرز النتائج أن مسؤولية بناء التوازن الداخلي لا تقع على عاتق الفرد وحده بل هي مسؤولية مشتركة تتقاسمها المؤسسات التربوية والثقافية والإعلامية التي يقع على عاتقها توجيه الوعي وتعزيز التفكير النقدي وترسيخ القيم الإنسانية المشتركة بما يمكن الأفراد من التعامل الواعي مع ضغوط العولمة وتحويلها من عوامل تهديد إلى فرص للنمو والتكامل الإنساني (Berger, 1967; Castells, 1996).

10. التوصيات:

في ضوء النتائج التي توصلت إليها الدراسة، توصي بضرورة تعزيز دور المؤسسات التعليمية والتربوية في تنمية الوعي النقدي لدى الشباب، بما يساعدهم على فهم التحولات الفكرية والثقافية المصاحبة للعولمة والتعامل معها بصورة متوازنة تحافظ على هويتهم الثقافية والقيمية. كما توصي الدراسة بالاهتمام بترسيخ القيم الأخلاقية والروحية في